Tunisie DEVOIR.TN

Bac 2013

محور النمذجة

معطى

الموضوع: إذا كانت النمذجة في العلم فعل اختزال وتبسيط، فهل تمثل الواقع بحق؟

لعل التأمل في التاريخ العلمي يكشف له تاريخ أضاء مجدده تبلغ حد القطيعة الابستمولوجية مع مراحله السابقة حيث يشهد من حين إلى آخر تطورات في مستوى مفاهيمه، تمشياته وهو ما يحيل إلى تعدد الحقائق وتعدد دلالات الواقع موضوع نظر العلم، هذه الطموح العلمي نحو آفاق البحث والفعل، وهذا التغير الدائم في أسسه يجعل فهمنا وإدراكنا للواقع اشكاليا. إشكاليا يجعل طبيعة المعرفة العلمية نفسها اشكالا.

فإذا كانت النمذجة العلمية تقوم على الاختزال والتبسيط فأية صورة تقدمها لنا عن الواقع؟ هل تتحدد قيمة الحقيقة العلمية بوفائها لواقع معطى أم بالتحرر منه فتبني واقعا كما يبدو، لا كما هو بحق؟

لعل جملة هذه الاشكاليات تحيلنا إلى الطابع الاشكالي للسؤال هذا الذي يطالبنا بالنظر في علاقة النمذجة بالواقع، ذلك أن التثبت في مضمون السؤال يكشف لنا تميز التمثل العلمي للواقع. فما النمذجة إذن؟

تحدد النمذجة عامة على أنها تمثيل فكري يبني نماذج بمعنى أنها مسار لإنتاج نموذج في مرحلة التطور الى مرحلة الفعل والفاعلية، حيث ذلك انطلاقا قامت وعي العلم بطبيعة تمثله العرفاني، إذ لم يعد العلم معرفة لأجل المعرفة أو اكتشاف الحقائق بل معرفة لأجل التطور، بالتالي ابداع نماذج فاعلة في الواقع.

شرح المعطى: وتتميز هذه النماذج بالاختزال والتبسيط وهي خاصيتين تحدد طبيعة علاقة النمذجة بالواقع، فالاختزال خاصية في النمذجة ناتجة عن استراتيجيا الاهمال أو الاغفال كما سماها توفال ونعني بها إهمال عدة معطيات من الواقع للتركيز على البعض منها لأجل الفهم والتطور نموذج يكون أكثر فاعلية في الواقع "فاستراتيجيا الاهمال تجد نفسها مرتبطة بالفهم" على قول توفال.

تهدينا هذه المايد فعنا إلى الاقرار أن الواقع العلمي كما يتم تمثله أو صورته يتميز عن الواقع المعطى المعيش، فإذا كان المعطى هو الموجود فعلا، المرئي، الظاهر، الملموس، الراهن، المعقد، فإن الواقع الاختراعي إنشائي، بنائي، تصوري، ما يعني أن النموذج لا يدعي أنه هو في الواقع أو أنه الواقع، بل لا يكون نموذجا إلا بقدر ابتعاده عن الواقع واقترابه من الخيال حيث تفتح عدة امكانيات لابداعات وتمثلات تكون منطقية متماسكة، صورية مجردة. هذه الخصائص تجعل النموذج بناء تبسيطي لواقع معقد، بالتالي تكون غاية الاختزال فهم المحسوس المعقد بالامرئي، المجرد البسيط، ويكون النموذج بنية صورية تمثلها عالم منمذج لا الواقع كما هو، بل كما يبدو، وهو ما يذكرنا بصور الأخير الذي يتمثل الواقع كما يبدو

Tunisie DEVOIR.TN

نموذجا تاما. كاملا، مطلقا، ونهائيا بل سيكون نسبيا ومؤقتا لم نعد نتحدث عن نموذج واحد ونهائي كما كنا ننظر للحقيقة العلمية بل تعدد النماذج، تاريخيتها وهي مرتبطة ببرنامجية الأهداف، وبمطالب أصحاب القرار فهي ظرفية، إذن هي تجزئة الواقع في فعل النمذجة ولا يدول دون ادراكه في كليته، إذ يبقى هذا التبسيط العلمي للواقع واختزاله هو تقريب له لا إثراء له، إذ يبقى كل نموذج مجرد افتراض، شبه مكتمل لأنه مجرد تصور

نستخلص إذن أن العلم بما هو نمذجة يعبر عن مرحلة جديدة في تاريخ العلم، إذ اعتبرت مرحلة ثورية دفعت العلم إلى إعادة النظر في طبيعة معرفته وفي تمثل الواقع لا وفق كما هو بل كما يبدو له، لكن هذا التحول يحيل بعض النظريات على القيمة العلمية للنمذجة إذ لم يعد واضحا أنها تعبر تستوفي كل عناصر الواقع.

له لا الواقع في حقيقته، إلا أن هذا التخيل لا يكون من الأشياء بل انطلاقا من معطيات جزئية تقدمها بقية الحواس كذلك النموذج يتمثل نموذجا كما يبدو له انطلاقا من المعطى الذي يتطلق منه في بعده الدلالي للنمذجة ليتفصل عنه في بعده التركيبي أي يتم افتراض نموذج حسب مواصفات الافتراض، هذا ما يحيل مباشرة إلى تغير دلالة الحقيقة العلمية من معنى المطابقة والاكتشاف إلى معنى البناء والإبداع مما يؤكد أن غاية المعرفة العلمية لم تعد الحقيقة المطلقة والتفسيرية للظواهر ~~بل الحقيقية~~ على اعتبار أن الممارسة العلمية اختراع نماذج لوضعيات أو أحداث ظرفية بسياقات، إذن الحقيقي هو الفاعل في الواقع ما يؤكد أن النمذجة بقدرما تحررت من الواقع، زادت قدرة على التدخل فيه والتحكم به.

نخلص هكذا إذن أن ماهية الاختزال والتبسيط مكنت العلم من التحرر من الواقع المعطى لبناء واقع افتراضي وهو ما جعل المعرفة العلمية مفتوحة على كل الامكانيات على أساس التغير الدائم في أسسها وفي النموذج نفسه، هذا التغير يوجه النظر نحو قيمة اليقين العلمي إذ في غياب هذا اليقين نوع من الريبة في ادراك الواقع.

II - بالعقل فإن العلاقة الأصلية للعلم بالواقع بما هو علم يقدم لنا حقيقته، قد تغيرت إذ أصبح العلم يقدم لنا صورة نتمثل بها الواقع لا صورة عن الواقع في حقيقته، فاستراتيجيا الاهمال أدت إلى بعثرة الواقع، تفكيك وحدته عوض النظر له ككل، وبالتالي لا تقدم